الرقص الفرنجي

﴿ فى شعر ابن حمديس ﴾

قال ابن حمديس وقد سأله رجلٌ أديبٌ من الاندلس أن يصف له راقصةً على مذهبهم فى رقص قيناتهم ، وذلك أنّ الراقصة منهم تشير بأنملها وهى تغنىّ الى كلّ عضوٍ وما يحلُّ به من تعذيب الهوى : فان ذكرت دمعاً أشارت الى الغيرة ، وإن وصفت وجداً أشارت الى القلب ، وهى معذلك تعبِّر عن تدلُّل المحبوب وتذلُّل المحبِّ بما يليق بهما من الاشارات الحسنة والحركات المنبهة على ما أرادت :

وراقصةٍ بالسِّحرِ فى حَرَكاتِهَا ... تُقيم به وزنَ الغناء على حَدِّ
مُنَغِّمَةٍ ألفاظَها بترنُّم ... كسا (مَعْبَداً) مِنْ عزّهِ ذِلَّةَ العبْدِ
تدُوسُ قلوبَ السامعين برخمةٍ ... بها لَقَطَتْ ما لِلَّحونِ من العَدِّ
بِقدٍّ يموتُ الغُصنُ مِن حَرَكاتِه ... سُكوناً ، وأين الغُصْنُ من نزهةِ القَدِّ
وتَحسِبها عمَّا تُشير بأنملٍ ... إلى ما يُلاقِى كلُّ عُضوٍ من الوجْدِ
بنا لابها ما تَشْتكي من جَوَى الهوى ... وأدْمُعِ أشواقٍ مُحَدِّدَةِ الخَدِّ !

* * *

فى هذه المقطوعة تتجلّى مميّزات الشعر الكلاسيكى : فابن حمديس يدع التوشيح جانباً ويلجأ الى بحر الطويل ، فيصف لنا متأنِّياً مشهدَ الرّقص بأسلوب جزلٍ وألفاظٍ عربيةٍ أصيلةٍ ، وينظر النظرةَ التقليديةَ المحترمةَ الى التشبيهات العربية المأثورة دون أن يكون المقلدَ الأعمى . ومن كلّ هذا يكتسب الشعر الكلاسيكى (أى المدرسى المأثور) حرمته ، لأنه يحرص على أدوع التقاليد الشكليّة ولكنه يقرنها الى قوة المعانى الشعرية بحيث أنّ المجدّد (الرومانطيقى)

الذى يهيم بصنوفٍ حديثةٍ من الأوزان والأخيلة والمعانى والموضوعات لايتردد مع ذلك فى تقدير ذلك الشعر الكلاسيكى ، لأنه وإن يكنْ تقليدىَّ الديباجة والصياغة الاَّ انه يجمع اليها قوة شعرية ممتازة . وإنك لواجدٌ كلَّ بيت من هذه الأبيات المتقدمة زاخراً بالمعانى الشعرية . ولهذه المناسبة تقول إنك قد تجد شاعراً كلاسيكىَّ النزعة فى مناسبات (كما هو حال شوقى بك فى معظم شعره) ورومانطيقياً فى مناسبات أخرى (كشأنه فى دراماته الشعرية) ، واذا كان القديم من الشعر الحى الممتاز معدوداً كلاسيكياً فبيننا غير واحد من الشعراء ينحو هذا النحو بسليقته وثقافته حينما ينحو سواهم عكس ذلك : فشوقى بك مثلاً فى جملته شاعر كلاسيكى بينما الدكتور ابراهيم ناجى شاعر رومانطيقى . ومع هذا فكلاهما بفطرته الشّعرية السليمة يقدّر شعر ابن حمديس المتقدم خير تقدير نظراً لروحه الشعرية التى تتلاقى عند قوتّها مذاهب الشعراء المختلفة وتشترك فى احترامها .

ومما تقدم يتضح أنّ الشعر القديم لا يعنى حتماً الشعر الكلاسيكى والعكس بالعكس ، كما أن شعراً بعينه قد يجمع فى القصيدة بين الاسلوب الكلاسيكى والمعانى المثالية والشذوذ أحياناً عن ذلك كما رأيت فى قصيدة ابن زيدون المنشورة فى العدد الماضى ، وقد يجمع بين الاسلوب الكلاسيكى والمعانى المستّحدثة الطريفة كما يلاحظ لبعض فحول شعرائنا من المعاصرين والسابقين (قد نشرنا أكثر من نموذج لذلك فى هذه المجلة) ، والتقدير لهذا الشعر أمرٌ نسبىّ ولذلك تختلف الاحكام بين النقاد .

وقد قيل لنا فى معرض النقد إنّ الشعر العربى بعيد عن الروح الكلاسيكية بالمعنى المتواضع على هذه الكلمة ، وان الشعر الكلاسيكى قوامه البعد عن الغناء فى الشعر ، وتجافى الذاتية ، وطلب الكمال فى الشكل ، الخ . وفى الواقع أننا حاولنا الاعتدال فى التعريف وفى التطبيق بما كتبناه فى هذا الباب ملائماً للشعر العربى ولنا سند أدبى فى ذلك من نظرات لافرين فى كتابه دراسات فى الادب الأوروبى (Lavrin's Studies in European Literature). مثال ذلك أن الاغراق والتسلسل فى الوصف تفليةً وتحليلا (مما كان يلجأ اليه شعراء الاغريق واللاتين وكما نراه فى شعر ابن الرومى) كثيراً ما يُسَمّى كلاسيكياً (راجع « دراسة الشعر » The Study of Poetry تأليف بلاكوود وأزبورن ص ٨٥) ولكننا أحرصُ من الاقتصار على هذا النهج من البيان عند تعريف النسق الكلاسيكى لشعرنا العربى ، وليس هذا بدعة منا حينما التواضع العام يجيزه (راجع Webster). ونحن لانجد التصوُّر الدرامىَّ

الصِّرفَ المشهودَ في نظم هومير وشكسبير وسوفكليس وأمثالهم من الاعلام السابقين ظاهراً في الشعر الشرقي جملةً بل نجد بدله التصور النسبي والميل الى القدرية او المصادفة والعناية بالحوادث بدل العناية بدراسة الشخصيات المرتبطة بهذه الحوادث ، وكل هذا من تأثير البيئة والظروف واختلافها بين الشرق والغرب . بيد ان هذا لا يدعونا الى تجريد الشعر الشرقي عامةً والشعر العربي خاصةً من الاهلية لوصف القسم التقليدي الممتاز والمأثور الرائع منه بالشعر الكلاسيكي وإنْ تباين في بعض صُوَرِهِ وعَرَامَتِهِ وفي نسبته الأثرية بين عصر وعصر وبين تلك العصور وعصرنا هذا ، ولكننا نستثني على كل حال الشعر الغنائي المحض فهو قسم بذاته وله أصوله ومميزاته وله خروجٌ ظاهرٌ على رزانة وهيبة الشعر الكلاسيكي الاصيل ، ومع هذا فلو جاء ناقدٌ معارضٌ واعتبر الشعر الغنائي القديم المتسامي الرصين الديباجة ولا سيما الحماسي منه مثالا من أمثلة الشعر الكلاسيكي على اعتباره نموذجاً عالياً مأثوراً في البيان والصياغة والمناسبات التاريخية لما استطعنا أن ننكر عليه هذا الحقَّ في التقسيم كلَّ الانكار .

العمر والامانى

مُنًى تناثرن حول النفس ذابلة ... كما تناثر حول الدوحةِ الورقُ
تأبى التجاريبُ الا ان تودّعها ... بين الطموح وبين اليأس تصطفق
والعمر يجرى كما يجرى السحاب فما ... يعود ما جدّ منه وهو يستبق
وإن أُعِيدَ فلا حمدٌ لعودته ... هى الليالى غضابٌ او بها خرَق